بيان قصيدة الشعر في تونس

قصيدة الشعر والحداثة

قد يكون من باب الصدفة أن يصدر ديوان الشاعر خالد الوغلاني مع ديوان الشاعر الكبير جمال الصليعي في نفس السنة التي تحتفي فيها تونس بمرور مائة سنة على ولادة أبي القاسم الشابي الشاعر الذي ظلّت لأجيال تعتبره شاعرها الأوحد.وذلك على الرغم من أنّه لم يعش ليرى كلّ هذا الاحتفاء بشعره فقد مات نبيّا مجهولا يائسا من اعتراف أهله ولولا جهود بعض أصدقائه وعناية إخواننا من المشارقة الذين نبّهوا "قناديل باب منارة" إلى شعره لظلّ نبيّا مجهولا وطائرا غريبا لا يغرّد إلاّ لغير هذه الديار ولكن ليس من باب الصدفة أبدا أن يصدر هذان الديوانان معا في نفس السنة وبنفس الرؤية إذ هما نتاج مساءلة طويلة للذات في تفاعلها مع التراث والحداثة استمرّت مع جمال الصليعي ما يقارب الثّلاثين سنة واستمرّت مع كاتب هذه السطور نصف هذا الزمن تقريبا ولعلّ أهمّ ما رشح عنها من أسئلة ماذا يمكن أن نضيف إلى ما قدّمته الجماعات والمدارس الأدبيّة الحديثة والمعاصرة السابقة لنا وخاصّة ما تمحّض منها للتأسيس لمفهوم الحداثة الشعريّة؟ وهل يمكن القول إنّ هذا المفهوم الذي أرسته هذه الجماعات ودافعت عنه بالبيانات والأطروحات العديدة أصبح محلّ شكّ في ظلّ وجود فلسفات جديدة تدحضه أو مذاهب أدبية تقوّض مقولاته؟ وهل وقع بالفعل استيعاب الحداثة الشعريّة بمقولاتها الكبرى وهل وقع تجاوزها قراءة وتمحيصا ونقدا حتّى يمكن لنا أن ندعي تدشين مرحلة جديدة برؤية جديدة تضاف إلى عشرات الرؤى الأدبيّة التي شاءت لها الظروف أن تنشأ في وطننا العربي منذ ما يزيد عن القرن ونصف؟ إنّ المشكل الذي نراه قائما في الشعر العربي منذ عقود لا يكمن في طبيعة النظريّات المطروحة للنهوض بالشعر بقدر ما يكمن في تعاملنا نحن نقادا وشعراء وجمهورا مع هذه النظريات؟ إذ غالبا ما يستفزّنا الإعجاب ويأخذنا الانبهار فنتحمس للنظريّة ونتعصّب لها أو تأخذنا الحميّة فنثور عليها ونهبّ لصدّ ما نعتبره منها هادما لتراثنا محطّما لذواتنا ونحن في ذلك كله بعيدون كلّ البعد عن فهم الأنساق المتحكّمة في تلك النظريات غافلون كلّ الغفلة عمّا يعتمل داخلها من أفكار تنير السبل وترفع الغشاوة أو مزالق تدقّ الأعناق وتؤدي إلى المهالك والضلال.

إنّ صدور هذين الديوانين لا يمكن أن يكون سوى وقفة تأمّليّة في سياق هذا "الهروب المحموم" إلى الأمام الذي مارسته الحداثة علينا كما مارسته على الحضارة الغربيّة من قبلنا. أو لم تكن الحداثة في الغرب "سوى مظهر من مظاهر أزمة تاريخيّة وهيكليّة ومع ذلك لم تعبّر عن هذه الأزمة سوى بصفة غامضة في هروب مستمرّ إلى الأمام؟" (جان بودريار) لقد آن لهذا الهروب المرضي إلى الأمام الذي ما تزال الحداثة تفرضه علينا أن ينتهي إلى أسئلة بناءة لا تقوّض منجزات الحداثة بقدر ما تعدّل مسارها وتنظر في ما خلّفته حركتها السريعة من مظاهر الدمار "بنيرانها الصديقة".نعم للحداثة دمارها وضحاياها كما أنّ لها منجزاتها وأبطالها ويكفي أن نلقي نظرة على السلحة الشعريّة حتّى نستنتج ما تركته انفجارات الحداثة من آثار في نصوصناأولم تتشظّ النصوص عندنا وتكثر الدواوين بالملايين في مقابل تقلّص واضح للشعر

وندرة مفزعة للتجارب المتميّزة؟ نعم إنّ الكثرة قد تفرز الجودة ولكن ذلك لا يكون مبنيا على جهل تامّ بالمقاييس التي يمكن اتخاذها لتبيّن الشعريّة واصطفاء النصوص. فهل ما يزال اليوم متّسع لاتّخاذ الوزن والقافية معيارا لتعريف الشعر ونقده؟ لا أظنّ ذلكولكن لا أظنّ أيضا أنّ من كفروا بعمود الشعر وحطّوا عن الشعر "أوزاره العديدة" ليحرّروه من "أعبائه التقليديّة الشاقة" قد وفقواإلى كسر ما توهّموه جمودا واستئصال ما عدّوه تخلّفا، لا ولم يخطوا خطوة واحدة نحو جعل الشعر العربي متميّزا في محيطه طامحا إلى العالميّة. وإذا كان ذلك قد حدث مع شاعر كمحمود درويش فذلك لأنّه لم يقرن تجربته بجعجعة نظريّة واهية ولا عكّر مشاربه بتقزيم التراث والثورة الجوفاء على ما فيه من "تحجّر" و"تقليد".

لا شكّ في أنّ الحداثة قد زرعت حيث مرّت جماليّتها الجديدة القائمة على القطيعة مع السائد والبحث عن الريادة في كلّ الميادين وأنّ هذه المخلّفات المدمّرة داخل جماليّة الحداثة لم تنصبّ على شعرنا العربي فحسب وإنّما عرفها الغرب من قبلنا وعرفتها فنونه وآدابه. ولكن أيّة نتيجة انجرّت عن ذلك في الشعر الغربي على وجه الخصوص؟ لا شيء على الإطلاق فقد مات الشعر في الغرب أو كاد وانتهى إلى ما يسمّى اليوم بالشعر الصوتي الذي هو أقرب إلى الصياح الحيواني منه إلى التعبير البشري. فإذا شعراء الغرب ونقاده اليوم يبحثون عن الخلاص في الأشكال الشعريّة الشفوية الغنائية التي تنتجها بعض القبائل الإفريقيّة وهم الذين طالما تغنوا بعلوّ الكتابيّة وتدنّي الشفويّة في التقليد والانحطاط والغنائيّة المقيتة عندهم. فهذا بول زيمتور الباحث السويسري في أدب القرونالوسطى يقرّ بأنّ ما أثبتته الحداثة الغربيّة من بدائية الأشكال الشعرية الشفوية الإفريقية كان خطأ فادحا ارتكبه النقد الغربي في مسار اغتراره بالنزعة المركزية الأوروبية. وهذا إدوار جليسون الشاعر المارتينيكي الكبير يحدث في الشعر الفرنكفوني أثرا عميقا حينما ينحو به نحو المزج بين الكتابيّة والشفاهية في فهم مغاير للحداثة ينطلق من التقاليد الشفويّة المارتينيكيّة ليعدّل مسار الحداثة الشعريّة الغربيّة نفسها. إنّ كلّ هذه المبالغات المدمّرة داخل مسار الحداثة لا تجعلنا نفزع منها بقدر ما تجعلنا نفهم ما لها من طاقة هائلة على زحزحة الجمود القائم في المجتمعات التقليدية، وهو أمر ينبغي التعامل معه بكثير من الوعي حتّى لا ينجرّ عنه تدمير للأصول التي ينبني عليها شعرنا العربي. إنّنا اليوم أحوج ما نكون إلى إعادة مسار الحداثة على النحو الذي يجعله مفيدا لشعرنا غير متعارض مع خصوصياته، وهذا هو دور جيلنا الذي أراه مطالبا بأن يثبت على واجهة النقد كما أثبت نخبة من أبنائه على واجهة الإبداع أنّه على وعي حادّ بالحدود التي ينبغي أن تكون ماثلة بين الشعريّة من ناحية والحداثة والمعرفة والكتابة من ناحية أخرى.

الشعرية والحداثة:

إنّ المشكل الأكبر الذي تطرحه الحداثة على الشعر العربي يتمثل في طبيعتها المتمرّدة على القدامة في كلّ أشكالها فهي تفرض نفسها على المنخرطين فيها باعتبارها كلاّ متكاملا منسجما ونموذجا أوحد يقف في وجه التعدد الذي تمثّله الأعراف والتقاليد في مختلف الحضارات ويشعّ على العالم بأسره انطلاقا من الغرب على حدّ ما قول المنظرين الغربيّين أنفسهم ومع ذلك لا

يدّعي المنظرون لها الوضوح الكافي في تصوّر المجتمع الذي تطمح إليه بقدر ما يعتبرونها نمطا حضاريا مميّزا يواجه به المجتمع أنماطه التقليديّة القديمة. ومن هذه الزاوية تكتسب لحداثة عند المنبهرين بها من الأدباء صبغة المعيار والنموذج والحال أنّها لا تعدو أن تكون سمة من السمات التي ينبغي أن تتوفّر في النصّ حتّى يكون منسجما مع محيطه الجمالي. وعندما تصبح الحداثة معيارا تنتقل من كونها سمة من سمات الشعريّة إلى محدّد أوحد لها، وهاهتكمن الخطورة إذ بمجرّد أن تصبح الشعريّة مساوية للحداثة يتحوّل النصّ إلى فضاء لتحطيم التقاليد لا فضاء لبناء الجمال بل إنّ الجمال يتحوّل من انطباع متكامل يحكمه الانسجام المطلق بين الرؤى والبنى اللغويّة المعتملة في النصّ إلى مجرّد بحث تجريبي عن كلّ ما يخرق القاعدة أو يكسر التقليدفإذا النصّ الأجمل في معيار الحداثة هو النصّ الأكثر غربة عن السائد الأقلّ انسجاما مع ذائقة المجتمع الأشدّ جفاء لكلّ الأعراف الفنيّة والحال أنّ الشعريّة لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تقتصر على سمة واحدة وإنّما تتأسّس على مزيج من احترام السائد وخرقه وفي ذلك يكمن فضلها ونجاحها.إنّنا إذ ندعو إلى الفصل بين الشعريّة كمعيار لنقد الشعر وإنتاجه والحداثة كسمة هامّة من سماته لا ندّعي الإتيان بجديد فقد سبق لأدونيس أن أثبت في بيانه الثاني عن الحداثة بأنّ "صفة الحداثة ليست حكما بأفضلية الحديث على القديم وإنّما هي مجرّد وصف، وبأنّ هذا الوصف قد يقع على نصّ يكون في الوقت ذاته نصّا عاديّا ورديئا. الحداثة بتعبير آخر سمة فرق لا سمة قيمة" هذا ما قاله أدونيس قبل خمسة وعشرين سنة ونظن أنّه مجهول لدى الجمهور إلاّ أنّ ما ندعو إليه هو ألاّ يكون الحديث عن هذا الفصل مجرّد كلام نظري لا تدعمه الممارسة النقديّة والإبداعيّة إذ غالبا ما ينزلق النقاد والشعراء في بحثهم المشروع عن الإبداع والتجديد إلى اتّخاذ الحداثة معيارا للجمال والقدامة وصمة قصور تلحق بالنصّ فتحطّ من شعريّتهإنّ ما ندعو إليه هو أن يكون للنصّ من الجماليّة ما يتّسع لاستيعاب التراث الشعري واللغوي واقتناص الحداثة من صميم اللحظة الراهنة الممتزجة بتراب عروبتنا وجراح شعوبنا واختلاجات ذواتنا التي لم تكن يوما ولن تكون غريبة عن أرضها وحضارتها وتراثها.

الشعرية والمعرفة:

إنّنا لنؤمن بأنّ النصّ الشعري هو ملتقى المعارف اللغويّة والإنسانيّة والتجريبيّة بل وحتّى التكنولوجيّة والمعلوماتيّة إذ الشاعر هو ذلك الحائك الذي ينسج بصبر وأناة بردة لمشاعره من خيوط معارفه المتشابكة. فالشعر لم يكن يوما سليل الجهل والغفلة بل كان ولم يزل عنوان معرفة أخرى تنشئها الذات مع العالم من حولها معرفة تمتزج فيها التجربة الحسيّة بالتجربة الوجوديّة والروحيّة سواء أكانت فرديّة أو جماعيّة. ومن هذا المنطلق لم يكن الشعر عنوان انكفاء على الذات وإقصاء للآخر واعتداد أجوف بالنفس وإنّما هو عنوان لقاء مع كلّ من يسير على درب المعرفة من منطلق الوعي بالذات وحدودها والآخر وثقافته والحاضر ورهاناته والماضي وخصوصيّاته.إنّ كلّ ما يدعو إلى الانغلاق على النفس مرفوض في منطق الشعر كما هو مرفوض في منطق الحياة إلاّ أنّ الانفتاح لا يعني بأيّة حال من الأحوال الانكشاف لأعداء الشعر والإنسانيّة أو الإذعان لمنطق الهزيمة والتخلف وإنّما الانفتاح الذي ندعو إليه هو وعي عميق بالمغايرة الثقافيّة المؤسّسة لحوار حقيقي بين الثقافات، حوار يمحو ما يفتعله الجهلة

والمنغلقون (من الطغاة والمستضعفين) من صراع بين الثقافات وصدام بين الأمم وتدمير لإنسانيّة الإنسان.

وإذا كانت معرفة الآخر بكلّ تناقضاته واجبة على الشاعر فإنّ معرفة الذات وتراثها ولغتها شرط أساسي لانتسابه إلى عالم الشعراء العرب إذ كيف لمن لا يعرف عن اللغة العربية إلاّ ذكريات اختلط الصحيح منها بالسقيم ولا يحمل من الشعر العربي إلاّ عناوين نصوص ضاعت متونها أن يدخل إلى عالم الشعراء مبرّرا جهله بقدامة هذه المعارف وبراءة ما يكتب من أدران التقليد. قد يبدو من العار علينا ونحن في أواخر العقد الأوّل من الألفيّة الثالثة أن نشير إلى مثل هذه المعرفة البديهيّة في تذوّق الشعر فضلا عن كتابته إلاّ أنّ الواقع الذي نعيشه نصوصا ضعيفة يروّج بعضها ويترجم بعضها الآخر ويتصدّر بعضها الآخر وسائل الإعلام يجعلنا ندعو الشعراء والنقاد ممّن يقدّرون مسؤوليّة الكلمة إلى أن يحفظوا الممارسة الشعريّة بل ويحفظوا اللغة العربيّة ممّا يروّج بين أهلها من جهل وقبح حان وقت زواله.
على أنّ الشعر ليس مجرّد فضاء تلتقي فيه المعارف المختلفة لتساعد الشاعر على بناء رؤية ذاتيّة متميّزة للعالم فحسب وإنّما هو أيضا مجال معرفيّ يمكن من خلاله إدراك العالم وإعادة إنتاجه شعريا ذلك الإنتاج الذي لا يقف عند حدود القصيدة وإنّما يتعدّى ذلك إلى كيان الشاعر والمتلقي على حدّ السواء. ولعلّ أهمّ ما يميّز المعرفة الشعريّة أنّها متعدّدة متغيّرة يلتبس فيها الوعي باللاوعي والتاريخ الجمعي بالراهن الذاتي والتمثل الطفولي للغة بالنقد العميق لثوابتها والتمثّل الجسدي للصوت بالإحساس الباطني بالصورة إنّها معرفة نبوئيّة لا تخفت صوت الحلم ولا تقمع رقص الجسد. تؤسّس التناغم من رحم المفارقات وتزرع التعدّد في عمق الوحدة وتسافر بما يقال إلى ما لا يقال. تلك هي العلاقة التي نروم تأسيسها بين المعرفة والشعر في فضاء القصيدة وذلك هو التمثّل البناء للمعرفة الشعريّة داخل ذواتنا وداخل الذائقة الشعريّة التي تحتوينا.

أخي العزيز بسام

تحيّة طيبة وبعد

منذ أشهر تلقيت منك دعوة للمشاركة في موقع أشرعة وقد اطلعت فعلا على الموقع وأعجبت بفكرته بل وجدت نفسي منخرطا فيه حتّى قبل أن أنخرط فقد كنت أعددت بطلب من نخبة من أصدقائنا المشاركين في الدورة الثانية من أمير الشعراء بيان حركة كانت تنوي الإعلان عن نفسها وكانت تضمّ في بالإضافة إلى كاتب هذه السطور: الشعراء محمد ابراهيم يعقوب وحاتم الزهراني من السعوديّة ومهدي منصور من لبنان وقحطان بيرقدار من سوريا وأحمد بخيت من مصر وعبد الله العريمي من عُمان ووأحمد أبو سليم من فلسطين وسيدي محمد ولد بمبا من موريتانيا وقد بدأنا العمل فعلا وقدّمت مسوّدة بيان وافق عليه جلّ الأصدقاء ولكنّ هذه الحركة لم يكتب البقاء فوضعت البيان الذي أعددته للحركة مقدّمة لديواني (تسابيح الغياب) الذي صدر في نفس الوقت مع ديوان الصديق الشاعر جمال الصليعي باعتبارنا نمثّل حرة شعريّة واحدة وكان ذلك في مارس 2009

وعندما جاءتني دعوتكم واطلعت على المجلّة وعلى القصائد وعلى بيان الحركة أدركت أنّ ما فكرتم فيه في عراق الإباء كان هو نفس الذي فكّرنا فيه في تونس وفكّر فيه أصدقاؤنا بالمغرب والغريب في الأمر أنّ جميعنا استعمل نفس التسمية دون تنسيق مسبق فقد كنت أنشأت منذ 2009 مجموعة على الفايس بوك بعنوان "أنصار قصيدة الشعر

وهذا هي التوصيلة

http://www.facebook.com/group.php?gid=84280852784#!/group.php?gid=84280852784&v=wall

أمّا البيان فقد ورد في هذا الموقع في التوصيلات التالية

القسم الأوّل

http://www.facebook.com/topic.php?uid=84280852784&topic=6953

القسم الثاني

http://www.facebook.com/topic.php?uid=84280852784&topic=6969

القسم الثالث

http://www.facebook.com/topic.php?uid=84280852784&topic=6993

أرجو أن تطّلع على هذا البيان وقد رأيت أن أمدّك بنسخة إلكترونية من ديواني الذي ورد فيه هذا البيان كاملا وديوان رفيق دربي جمال الصليعي راجيا أن ينشر على أعمدة المجلة والموقع وأن يكون فاتحة مشاركتي معكم ودعمي لما تبذلون من مجهود لصالح الشعر العربي

وستجد هنا صورة لي لتوضع في الموقع مع سيرة ذاتية محيّنة
مع خالص الشكر